

كراسات

النجمة الحمراء

العدد 1

كروبسكايا

ناديا

المعلمة البلشفية الرائعة

إعداد جميلة صابر



ناديا كروبسكايا

المعلمة البلشفية الرائعة

جميلة صابر

2017 - 3 - 26



تقديم:

إن كل من يتتبع مسار حياة ناديا كروبسكايا رفيقة إيليتش أوليانوف (لينين)، لا يمكن إلا أن يكون منبهرا ومشدوها أمام هذه المرأة الرائعة، ويعجب بها أيما إعجاب، حتى أنه يمكن القول وبدون مبالغة، ويتجراً على القول ولا يأخذه في ذلك لومة لائم، أنه لولا كروبسكايا لما كان لينين، بل وأكثر، أنه لولا كروبسكايا لما توفرت العديد من الشروط التي ساهمت بقوة في ثورة أكتوبر الاشتراكية العظمى، لأنه قليلون من يدرك أنه في التفاصيل وما يظهر أموراً صغيرة، عندما يجمع يعطي أشياء عظيمة، وهذا ما ينطبق على هذه المرأة العظيمة، ناديا كروبسكايا .

إن ما تحفل به ثنايا الكتب والكراسات والأرشيفات والشهادات والأقوال حول هذه المرأة، يجعلك تقف وقفة إجلال واحترام لها ويشد بلبابك شخص هذه المرأة وعقلها وقلبها، بل تصاب بكل المهابة وأنت تكتب عنها مخافة أن لا توفيتها حقها. اعتباراً لكل ذلك العمل الضخم والهائل الذي قامت به، والأدوار التي لعبتها في تاريخ روسيا قبل الثورة وبعدها.

كروبسكيا هي تلك المرأة المتعددة الأبعاد، المرأة ذات المهمات الصعبة وصاحبة التفاصيل الدقيقة، تلك التفاصيل التي لا ينتبه لها في الغالب، لكن تخرج منها الأمور وجلائل الأعمال.

كانت كروبسكيا كل شيء وأي شيء يتعلق بلينين وبالثورة وبمصير روسيا، هي سكرتيرة لينين، سكرتيرة تحرير جريدة "الإسكرا"، تحملت مسؤولية المراسلات والتصحيحات والتنسيق والإشراف على إدخال "الإسكرا" التي كانت تصدر بالخارج والوثائق إلى روسيا وعبر أوروبا، كانت تتولى الإشراف على الاستقبالات في المنزل (تستقبل الرفاق الذين يأتون من بعيد)، تحدد مواعيد اللقاءات وحتى وسائل الاتصالات وأماكن المواعيد هي من يتولاه، هي التي تكتب الرسائل وهي من يضع لها الشفريات وهي أيضا من يفك هذه الشفريات، ويحكي عنها أن في غرفتها تشتم دائما رائحة الورق المحترق الآتي من الرسائل التي تدفئها فوق المقلاة لتقرأها.

إضافة إلى كل هذا فقد كانت مساعدة لينين على منهجية القراءة المختلفة والمشاركة في الكتابة، بل إن منهجية العمل نفسها هي التي نقلتها إلى لينين، وليس في ذلك غرابة، ألم تكن بيداغوجية عصرها وما قبل عصرها وما بعده وابعائها في ذلك طويل وصل درجة العالمية.

أكثر من كل هذا، ويا لعظمة هذه المرأة، فلم تكن تغب عنها لا الأشياء الكبيرة ولا الصغيرة (يعني كما يقول المغاربة "الشاذة والفاذة") وحتى تلك التي قد تبدو تافهة يكون لها كل التأثير والأهمية لاحقا.

لقد كانت راحة لينين دائما هاجسها، فهي الأكثر إدراكا للمسؤولية العظيمة الملقاة على كاهله، تلك المسؤولية التي

تعتل لها الصحة ويصيب التفكير المستمر صاحبها بالوهن، لذلك فقد كانت تقود لينين كلما أحس بالتعب أو المرض إلى قمم الجبال السويسرية (عندما كانا مستقرين بسويسرا) وغاباتها مشيا على الأقدام، يعود لينين بعدها متجددا قويا ومتحمسا لإنجاز أعماله المختلفة والكثيرة، حيث يستطيع إنجاز عشرات المقالات والدراسات في فترة وجيزة.

هل كان بإمكان لينين لوحده أن ينجز هذه الأعمال؟ هل كان لينين لوحده قادرا على القيام بكل هذه المهام - التي تشيب لها الولدان - وهو الذي كانت صحته تعتل باستمرار لولا وجود كروبسكيا إلى جانبه؟ طبعاً إن عمل الفريق وحده الذي يكون منتجا دائما وهذا ما شكله الرفيقان كروبسكيا ولينين.

إذن للحقيقة والتاريخ، عندما نتطرق باسم لينين، لا يمكنك إلى أن تفرقه باسم كروبسكيا، فقد كانت حاضرة في حياته بشكل لا يقبل الفصل أبدا كالتوأم السيامي.

منذ أن التقت كروبسكيا لينين لأول مرة، وحتى قبل لقائهما، كانت قد وضعت لنفسها مكانا في الثورة القادمة وشقت لنفسها طريقا للثورة لا رجعة فيه، وكما أشرنا إلى ذلك سابقا فهي حاضرة في كل شيء يهم لينين، لا يمكن

تجاهلها أبداً، هي في الكبيرة والصغيرة، في العام والخاص، في الكل والجزء، إنها حاضرة في أدق تفاصيل حياة إيلتس أوليانوف، وبذلك يصح في حالة كروبسكايا المثل القائل "وراء كل رجل عظيم امرأة" وإذا توخينا الدقة والموضوعية في حالة هذه المرأة يجب القول "وراء كل رجل عظيم امرأة عظيمة".

مثلت، وتمثل كروبسكايا نموذج النساء العظيمات اللواتي يصنعن التاريخ، بل إن التاريخ لا يمكن أن يتقدم إلى الأمام إلا إذا سارت النساء في ركابه بل وقدهن، لكن النظام الأبوي السائد والمجتمع الذكوري الباترياركي والعقلية الذكورية القابضة في أعماق الذكور، تأتي إلا أن تلمس أي عمل عظيم للنساء وإلغائهن من مقدمة الصورة ليتوارين خلف الرجال.

في كل ما أنجزته كروبسكايا وقامت به، كانت الكتابة والطباعة تحتل مركزاً كبيراً ضمن اهتماماتها المتعددة والمختلفة، فآلاف الكلمات ومئات الكتب والنصوص وعشرات المجلدات وآلاف الأفكار التي خرجت من دماغ لينين - والكثير منها من وحي النقاشات مع رفيقته - كل هذا كانت أصابع كروبسكايا وأناملها من رقنه على الآلة الكاتبة، فبفضلها خرج ذلك الفكر السديد الذي انتشر بين الناس ونهل منه الثوريون من داخل روسيا وخارجها.



فأي أنامل تلك التي كانت تضغط على الآلة الكاتبة فتخرج تلك الإنتاجات الفكرية والسياسية الغزيرة والهائلة إلى الملاء، لقد كان العمل مكثف بشكل كبير، والوقت ضاغط بشكل رهيب، وبسبب هذا لا يمكن لتلك الأنامل إلا أن تكون قد تورمت وانتفخت، بل قد تكون نزفت دماً، لكن صاحبته لم تكن لتهم، ولا لتتبرم مما تفعله، فهي لم تكن تشعر بأناملها فليس لها ترف حتى تفقدها والاهتمام بها، فالمسألة عظيمة والقضية ملحة وعادلة، ثورة المستقبل، كل شيء في سبيل الثورة يهون، فقضية الثورة وقلب روسيا رأساً على عقب، يستحق دماء تنزف وجسداً ينهك وعيوناً تنتفخ، من أجل تحرير الشعب الروسي وإخراجه من غياهب الظلام إلى أفاق الأنوار، وانتشاله من ظلمات القرون الوسطى التي يعيشها، ووضعها العبيد التي يكادها عمالاً وفلاحين وكل بؤساء الشعب. ثم إن ظروف إعداد الثورة والتهيئ لها يتطلب نكران الذات وبذل كل الجهود كاملة غير منقوصة واشتغال كل الجوارح، كل الكيان يجب أن يستنفد، يجب إخراج كل الطاقات التي لديك، فقضية الثورة وضرورة نجاحها وانتصارها، وملحاحية توفير شروطها ببذل له الغالي والنفيس وكل عصارة المهجة والعقل، وأيضاً فمن أجل فتح الطريق أمام البشرية لتحقيق انعتاقها فكل الصعاب تهون.

أية عيون هاته التي سهرت الليالي لا يغمض لها جفن، ترقن الكلمات تلو الكلمات وجمل تسابق بعضها وصفحات يشد بعضها في بعض، كل ذلك والمرأة في عجلة من أمرها، فالمهام ثقيلة تعجز الجبال عن حملها، والوقت لا يسعف، ضيق بشكل رهيب، ويمكنك أن تتصور كم تمت أن يتمدد النهار وكم استعطفت الليل ليزيد طولاً، حتى تستطيع إنهاء المكتوب، ذلك الذي يجب أن يأخذ طريقه في الصباح الباكر حسب الوجيهات المحددة لديه، فإذا كان نحو روسيا فالطريق طويلة والمطبات في الطريق هائلة، فعيون القبصر مبنوثة في كل مكان، ساهرة لا تنام، تترصّد لاقتناص أعدائها وما أدراك من أعداء، فهي امرأة اشتغلت في المنافي داخل روسيا وفي ديار الهجرة المؤقتة،

ومتابعة مع رفيقها في كل مكان، لقد اشتغلت في قر الطقس وقساوة برد الشتاء، فأني جسم هذا يتحمل كل هذا إن لم تكن صاحبه امرأة استثنائية.

كل هذه المهام العظيمة والأعمال الهائلة قامت بها كروبسكايا، وسيظل التاريخ يذكر لها كل تلك الأعمال الجليلة والصناعات العظيمة، هي التي اشتغلت كالنملة وتقلت كالنحلة، لا يرف لها جفن، لا تمتن الشكوى، لا تقول آه حتى وهي في حالة من العياء أو التعب أو المرض.



إنها بحق امرأة وأي امرأة، إنها المعلمة الكبيرة، والمثقفة العضوية الملزمة والعالمة البارعة والمربية الفذة، إنها الناشئة والموزعة التي لا تكل، إنها الداعية والمحرضة والمنظمة، إنها في الحزب لبؤة لا يشق لها غبار، إنها كذلك وبامتياز تلك المنظرية البيداغوجية متفردة زمانها، التي آمنت إيمانا قويا بالأ تقدم للشعب الروسي ولا تحرر له والأمية تنهش عقول كبارهم وصغارهم، نسائه ورجاله، فجعلت من محاربة الأمية ونشر التعليم في صفوف العمال والفلاحين والكادحين عموما، قضيتها الثانية بعد قضية الثورة، بل اعتبرتهما يتماشيان معا بالتوازي، كانت دائما وسط العمال وفي قلب همومهم، لصيقة بالمضطهدين

والمستغلين، وليس ذلك بالأمر الغريب، فالمرأة تشبعت بالفكر الماركسي وتعلقت بأفكار رائديه كارل ماركس وفردريك انجلز، منذ أن وعت وفتحت عينيها على واقع روسيا المتخلف وعلى قهر القيصرية لشعوب روسيا.

إذا كانت كروبسكايا قد أريد لها أن تبقى قابعة في الظل، حتى ليخيل للكثيرين أن هذه العبقرية اللينينية هي من صنع لينين وحده، فيكفيها فخرا أنها كانت تلك الشمس الوقادة التي أنارت لرفيقها الدروب المظلمة، وفتحت أمامه المسالك الوعرة وعبدت أمامه الطرق المنعرجة وسهلت عليه الصعاب المتعددة.

لقد كان حقا، ذلك اليوم الذي التقت فيه كروبسكايا لرفيقها لينين يوما مشهودا، فقد كان له ما بعده، فقد شكل ذلك الحد الفاصل لما ستكون عليه روسيا في المستقبل، فما أرقها من ربح تلك التي رمت بها في طريق إليتش أوليانوف، وما أسعده من حظ ذلك الذي قادها نحوه، ما أعظمه من يوم ذلك الذي ولدت فيه، فقد أعطت ما استبقت شيئا.

مهما كتب عن هذه البلشفية الرائعة ومهما قيل عنها، فإن ذلك لن يوفيها حقها، وسيكون عاجزا كل من حاول حصر فضائلها وجمع جميل صنائعها وتلخيص كل ما قدمته لروسيا الوطن ولروسيا الشعب.

نختم الكلام بالقول، ونموذج كروبسكايا ماثل أمامنا، لمن ينكر على المرأة أدوارها في التاريخ صناعة، وفضلها على الثورات مسارا وإنجازا، هل كان لينين لوحده قادرا على القيام بكل تلك المهمات، وفي أدق تفاصيلها لو لم تكن

رفيقته كروبسكايا إلى جانبه؟ وهو الذي كانت صحته تعتل باستمرار بحكم الإجهاد الفكري والقلق الدائم الذي تتطلبه الثورة وهم الثورة وهاجس الثورة.

فسلام عليك أيتها البلشفية العظيمة والرائعة، يوم ولدت ويوم تحيين وتبعثين في قلوب كل المضطهدين والمضطهدات، المستغلين والمستغلات وكل ثوار وثوريات العالم.

في مقدمة هذه المقالة، رسمنا بروفايلا للمرأة التي كانتها المعلمة البلشفية العظيمة كروبسكايا، استعرضنا فيه عظمة هذه المرأة وروعيتها، وكان التركيز بالأساس على الأدوار العظيمة والتميزة التي قامت بها في حياة رفيقها المعلم العظيم لينين، ملهم ثورة أكتوبر الاشتراكية العظمى - حتى أنه تجربنا كثيرا وقلنا إنه لولا كروبسكايا لما كان لينين- وفي حياة الشعب بل وفي تاريخ روسيا.

في هذه الفقرات سنحاول أن نقف عند المسار الذي قطعه كروبسكايا منذ ولادتها إلى وفاتها مركزين بالأساس على المرأة التي كانتها كيبداغوجية ومربية لا يشق لها غبار، وصيتها في ذلك ضرب الآفاق وذاع على الصعيد العالمي، فهي من وضع الأسس الأولى للبيداغوجية الماركسية - اللينينية.

كروبسكايا : مسار امرأة و سيرة حياة:



ولدت نادجدا (أو ناديا) كروبسكايا بمدينة سان بترسبورغ بروسيا يوم 14 فبراير من سنة 1869، وسط عائلة تنتمي إلى الأرستقراطية الفقيرة (أسرة نبيلة صغيرة)، ابنة قسنتين كروبسكايا الضابط في الجيش الروسي، الذي تحطمت مهنته العسكرية على شاطئ آرائه السياسية، فقد مسه شيء من الفكر التنويري الذي كان يتلمس طريقه آنذاك في روسيا حيث الاستبداد القيصري،

وقد توفي سنة 1883، أما والدتها فهي إلزيفيتا

فاسيليفنا تستروفا (1843 – 1915)، كانت مربية، ومنها ستتشرب كروبسكايا شغفها بميدان التربية، كانت امرأة رافضة للاستبداد، وبالتالي كانت تدافع عن الأفكار اللبرالية، أفكار الأنتلجانسيا الروسية آنذاك، لذلك فالمرأة التي أصبحت كروبسكايا نبتت في وسط عائلي يرفض الظلم والاستبداد، ويتطلع إلى الخلاص من ظلمات القرون الوسطى التي كان يعيشها الشعب الروسي.

هذه التربية إذن، أثرت بشكل كبير في الشابة الصغيرة، التي أبانت عن قدرات مدرسية جلية، وعن فضول فكري نهم.

لقد تلقت كروبسكايا الأفكار التقدمية التي ميزت الانتلجانسيا الثورية والديموقراطية لذلك العصر، هذه الأفكار التي لم تكن إلا لتمارس تأثيرها على هذه الفتاة المتقدمة الذهن والمتعطشة للمعرفة باستمرار، فعانقت بذلك في وقت مبكر جدا الأفكار التقدمية، وقد كتبت كروبسكايا تقول:

"منذ تلك الفترة، كنت أسمع مرارا النقاشات حول الثورة، وقد كان تعاطفي يتجه بشكل طبيعي نحو الثوريين"

(المجلد الأول، صفحة 9)

وهذا يبين أن كروبسكايا اختارت خندقها منذ وقت مبكر: خندق الثورة والثوريين.

بعد أن أنهت دراستها الثانوية بتفوق، تابعت كروبسكايا دروسا في البيداغوجيا لمدة سنة، لكنها لم تتمكن من الحصول على عمل كمدرسة، وهي المهنة التي عشقتها بشغف كبير، سواء في منطقتها أو في العاصمة، وكان عليها والحالة هذه أن تكتفي بتقديم دروس خصوصية، ومزاولة مهمة معيدة في الأقسام العليا في إحدى الداخليات، وهي تجربة مكنت الحارسة العامة الشابة من إظهار مواهبها البيداغوجية وسعة معارفها وضميرها المهن، فقد كانت حقا بلشفية قبل أن يطل فجر البلشفية. وفي سنة 1890، ستلتحق كروبسكايا بالحركة الثورية بعد أن أصبحت عضوا في "حلقة الطلبة الماركسيين"، وفي سنة 1891، ستنخرط في الحركة العمالية وسترتبط حياتها بشكل نهائي بالأوساط البروليتارية، ثم فيما بعد بفيلادمير إيليتش أوليانوف (لينين).

ومنذ هذا التاريخ أصبحت كروبسكايا تعطي دروسا مسائية للعمال في يوم الأحد في سان بترسبورغ، وعملت بكل نشاط وحيوية في نشر الأفكار الثورية وسط العمال بفضل النقاشات والأنشطة المدرسية، التي مكنتها من أن تتأقلم مع ظروف حياتهم وعملهم.

تقول كروبسكايا :

" الخمس سنوات هذه التي قضيتها في المدرسة كانت الطاقة الحية التي تغذت منها ماركسيتي،

وجعلتني ألتحم إلى الأبد بالطبقة العاملة "

(المجلد الأول، صفحة 37).

اهتمت كروبسكايا بالنظرية الماركسية، التي حلت شيئا فشيئا محل التيار "الشعبي"، الذي كان منتشرا، وهكذا سيعزز التزامها السياسي نشاطها البيداغوجي ويجعلها تتجه نحو الفقراء، لذلك ابتداء من 1891 ستتفرغ لمحو الأمية لصغار وكبار الأسر العمالية بإعطاء دروس ليلية للعمال يوم الأحد في سان بترسبورغ .

هذا الاحتكاك بالعمال، جعل كروبسكايا وجها لوجه أمام حقيقة الحياة الصعبة لحياة عمالية انبثقت من تطور صناعي قوي عرفته روسيا في أواخر القرن 19، فتشبثت بشدة بإدانة التناقضات الاجتماعية الحادة التي كانت تعرفها روسيا، وستتمسك بدراسة الحياة التي تحيط بها، بتناقضاتها واضطراباتها الاجتماعية بحرص شديد، والبحث عن أسباب الظلم المنتشر، وأيضا عن وسائل وضع حد لها، فتقرأ بشراهة المؤلفات ذات الصدى الاجتماعي لكتاب روس وأجانب، وتدرس مؤلفات الاشتراكية العلمية، كارل ماركس وفريدريك انجلز، وكقارئة كبيرة تلتهم الكتب ذات النبرة الاجتماعية والثورية بالأساس، فقد لاحظت أن الترجمات التي تتوفر عليها محدودة فقط في بعض مقاطع كتاب "الرأسمال"، بينما باقي مؤلفات الفيلسوفين وفي مقدمتها "البيان الشيوعي" مفقودة في روسيا. وفي سنة 1893 ستكتشف، كما كتبت، "هذا الماركسي العالم جدا" (لينين) وهي تقرأ واحدا من نصوصه،

وهو دراسة اقتصادية، التي وقفت فيها كروبسكيا، وهي البيداغوجية الجيدة، على صفاء التعبير ووضوح التحليل فيها.

في سنة 1895 ستخترط كروبسكيا فيما سمي ب"اتحاد النضال من أجل تحرير الطبقة العاملة"، التي تأسست في مدينة سان بترسبورغ على يد لينين، ومنذ هذا الحين سيلتقي مصير مناضلين فذيين في الحياة الخاصة والحياة العامة مترابطين بعقد نضالي نهائي لا انفصام له، ومنذ هذا الحين، ستركس قرابة نصف قرن كامل كل قواها ومعارفها لقضية الحزب، من أجل خدمة الشعب والتغيير الثوري للمجتمع.



كانت كروبسكيا متعاونة متيقظة، تهيء المؤتمرات ومحاضرات الحركة، بل تشارك فيها، وبكل حيوية ونشاط كانت تشارك في نقاشات الحزب، وهي في ذلك بين المتابعات والاعتقالات التي كانت موضوعا لها، وتقوم بتوزيع مقالات الدعاية.

في شهر دجنبر من سنة 1895، سيعتقل لينين ويتم نفيه لمدة ثلاث سنوات نحو سيبيريا، وبعد وقت قليل من هذا التاريخ أي في أوائل 1896، سيتم اعتقال كروبسكيا بدورها ويحكم عليها بالسجن لمدة ثلاث سنوات. ومن أجل الالتقاء بلينين، الذي قررت أن تربط مصيرها بمصيره صرحت أنها خطيبته، مما سيسمح لها بالالتحاق به، وذلك في شهر ماي من سنة 1898 لتتوجه في شهر يوليوز من نفس السنة.

لم تعد ظروف لينين وكروبسكيا كتلك التي في السجن لأنهما أصبحا أحرارا في الذهاب والإياب، فقد عاشا في تخوم الامبراطورية حياة نشاط دراسي وقراءات متعددة، تصاحبها أعمال ترجمة لكتب انجليزية، وهي وسيلة للرفيقين من أجل تعلم الانجليزية التي ستساعدهما فيما بعد، كما كانت لهما مراسلات نشيطة جدا، وكانا يستضيفان كل المناضلين المنفيين مثلهم ويزورانهم في المنطقة التي يوجدون فيها.

في فبراير من سنة 1900 سيتم الإفراج عن لينين، وهو اللقب الذي سيلزمه منذ هذا التاريخ، مما سيسمح له بمغادرة روسيا، وبعد أسابيع قليلة ستلتحق به كروبسكيا في ميونيخ بألمانيا.

ستنقلب هذه الهجرة الماركسية الروسية نحو نشر الجريدة الدعائية "الإسكرا" (الشرارة) التي صدرت في دجنبر 1901 في شتوتغارت بدعم مهم من مناضلي الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني.

وفي ألمانيا ستكتشف كروبسكيا ميزات وعيوب الوسط حيث يوجد المثقفون المنفيون، فقد لاحظت ابتعادهم عن الواقع الروسي، خاصة منهم بليخانوف، الذي حسب كروبسكيا كان غير قادر على إدراك التوازنات الاجتماعية الجديدة داخل الامبراطورية، وعلى العكس من ذلك تقربت من المناضلين العمال، الذين يخاطرون بأنفسهم، حيث يقطعون آلاف الكيلومترات من أجل إيصال الرسائل. وبدون أن تعرف هي نفسها حدة الصعوبات والمشاق

كانت تتقاسم أيضا مع لينين تقلبات حياة ثوري محترف، حيث إلى جانب الصعوبات المادية التافهة، كان ينضاف إلى ذلك ضرورات حياة ترتكز على السرية.

على امتداد سنوات الهجرة هذه، كانت كروبسكايا تزور المدارس والمكتبات وتلتقي المدرسين، وتهتم بالمناهج البيداغوجية المحلية، أي المناطق التي كانت تحل بها، وقد مكنتها هذه الأعمال من أن تضع حصيلة نقدية للتعليم في هذه المناطق.



في سنة 1901 كان لينين منغمسا كليا في كتابة مؤلفه الشهير "ما العمل"، وكانت كروبسكايا تقاسم نقاشات معه، وهي نقاشات تقاسمتها معه في كل كتاباته، وفي أبريل 1902 ستصل كروبسكايا إلى لندن التي حل بها لينين، من أجل تعميق أسسه النظرية في المدينة التي عاش فيها كارل ماركس آخر أيامه، حيث كان يرتاد (لينين) مكتبة "المتحف البريطاني".

سنة بعد محطته في لندن ستكون جنيف الوجهة التالية للرفيقين، حيث هنا ستطبع "الإسكرا"، وفي نونبر 1905 ستقفل كروبسكايا راجعة إلى بلدها روسيا على إثر الثورة التي اندلعت به في هذه السنة، إلا أن فشل الثورة أجبر الرفيقين على مغادرة روسيا، ومنذ هذا التاريخ ستعيش كروبسكايا مرحلة الترحال عبر أوروبا، تحت خيار اللجوء الذي حصل عليه الرفيقان من طرف المساندين في الخارج.

بعد فلندا ومرور قصير ببرلين والعودة إلى سويسرا، بدأت كروبسكايا ما كانت تسميه بـ "الهجرة الثانية" التي تمتد من سنة 1908 إلى سنة 1917، مقسمة على ثلاثة مراحل متباينة من حيث مدتها، وهي مرحلة كانت مليئة بالمعارك والصراعات ضد خصوم متعددين من أمثال "المناشفة" و"بناة الله"، ومعارضون آخرون من داخل روسيا وخارجها.

خلال هذا المشوار من النفي والكفاح، كانت كروبسكايا تشارك في الصراعات والمعارك المتعددة التي وسمت تاريخ الحزب العمالي الاشتراكي الديمقراطي إلى جانب لينين، الذي كان دائما مهموما بالمحافظة على خط صحيح ضد أعدائه.

كانت كروبسكايا وهي التي تنتمي لجنس النساء، لا ترى في قضية المرأة صراعا طبقيًا فقط، بل هي صراع ضد الرأسمال وضد الاضطهاد الباترياركي، لذلك كانت تساند أيضا تحرر النساء مدعمة خلق "يوم أمي للنساء" الذي اقترحت رفيقتها المعلمة كلارا زتكين سنة 1910، وعملت أيضا مع البلشفية إيناس أرماند في نشر أول مجلة نسائية "العاملة" في مارس 1914، لكن سرعان ما اندلعت الحرب الامبريالية العالمية الأولى فتوقفت المجلة بسرعة عن الصدور.

(2) كروبسكايا: المعلمة، المريية و البيداغوجية التي لا يشق لها غبار:

يعتبر ميدان التربية والتعليم من الجوانب الغنية جدا في مسار كروبسكايا الحياتي، إذ وهي شابة، ما تزال تتلمس طريقها نحول العمل والشغل، كان الميدان الذي شغفها حبا، ميدان التربية والتعليم، أليست هي القائلة:

"لا يمكن مواصلة تطورنا الاقتصادي والاجتماعي، بدون أن نكون قد وضعنا نهاية لظلمات الأمية"

(المجلد التاسع، صفحة 226).



ولأن حياة كروبسكايا كانت حافلة بالأعمال الكثيرة التي قامت بها والمهام العظيمة التي أنجزتها، فسندف عند أهم المجالات التي كانت عزيزة على قلبها وتأخذ بلبها ألا وهو ميدان التربية والتعليم، وبالأساس الجانب البيداغوجي. نقت عند هذه المحطة المهمة في مسار هذه المرأة البلشفية، فقد كان دور كروبسكايا في التأسيس للبلشفية أمرا لا مرأ فيه وفي ميدان التربية كان جليا جدا (تربية بلشفية). وقد ربطت كروبسكايا النظرية والممارسة البيداغوجيتين بالمبادئ الماركسية، الشيء الذي سيجعل مساهمتها هي الأكثر أصالة في هذا الميدان.

حتى وهي منشغلة بالقضايا السياسية وغارقة في مهام متعددة فقد ظل هاجس التربية والتعليم والبيداغوجيا مستبدا بها، كمثال على ذلك، في سنة 1915 وفي "المؤتمر الأمي للنساء" الذي تم تنظيمه في مدينة بيرن بسويسرا، لم تتخل كروبسكايا في خضم ذلك عن ميدانها الدراسي الخاص، فانكبت تدرس بشكل دقيق مؤلفات كبار البيداغوجيين والأنظمة التربوية المطبقة.

في الوقت الذي اندلعت فيه ثورة أكتوبر الاشتراكية العظمى، كانت كروبسكايا قد كتبت أكثر من 40 مؤلفا في موضوع التربية والتعليم، كان أهمها جميعا كتاب تحت عنوان "التعليم العمومي والديموقراطية" وذلك سنة 1915 وصدر سنة 1917، وقد ساهم بشكل كبير في تطوير البيداغوجية الماركسية، وفي هذا الصدد يقول لينين:

"وفرت كروبسكايا باصطفافها إلى جانب وجهة نظر الطبقة العاملة، تأويلا جديدا للنظريات التي تبلورت مع الديموقراطيان والبيداغوجيان الكيران، جان جاك روسو وبستالوزي، لقد عرفت المجتمع الروسي بالمفاهيم البيداغوجية ل أووين وبليرز، وعرضت بشكل منهجي مذهب ماركس وانجلز فيما يتعلق بالعلاقات بين التعليم والعمل المنتج".

لقد درست كروبسكايا بتيقظ كبير كتابات بيداغوجيين كبار، سواء الذين سبقوها أو الذين عرفهم عصرها من أمثال: كومنسكي، جان جاك روسو، ببستالوزي، أو بشفسكي، تولستوي وغيرهم، كما درست الأنظمة التربوية المطبقة في عصرها سواء في روسيا أو في الخارج، خاصة تلك المطبقة في الدول الغربية، مثل الولايات المتحدة الأمريكية وانجلترا وفرنسا، وفي ألمانيا وسويسرا.

بحكم إكراهات الهجرة، كانت كروبسكايا تزور المدارس والمكتبات وتلتقي بالمدرسين، وتهتم بالمناهج البيداغوجية الحديثة، مما مكنها من عرض حصيلة نقدية للتعليم المدرسي في العالم، وعلى هذا الأساس طورت النظرية الماركسية حول المسألة المدرسية.



لقد بينت كروبسكايا، باستنادها على مجموعة كاملة من وقائع ملموسة، كيف أن مفهوم الإعداد للحياة النشيطة قد تطور خلال مختلف الحقب التاريخية حسب الطبقة الاجتماعية التي طورته، والظروف التي طبقت فيه، و آخر فقرة من كتابها "التعليم العمومي والديموقراطية" تلخص لوحدها هذا التحليل لتاريخ التدريب المهني حيث كتبت تقول:

"طالما أن تنظيم التعليم سيبقى بين أيدي البورجوازية، فإن التدريب المهني سيبقى سلاحا

موجها ضد الطبقة العاملة، ووحدها الطبقة العاملة يمكنها أن تجعل من التكوين

في العمل وسيلة ملائمة لتغيير المجتمع المعاصر".

كما كتبت سنة 1916 قائلة:

"سيأتي يوم سيكون من الممكن خلق مدرسة يحتاجها الجيل الشاب، ويجب أيضا معرفة

كيفية خلقها، ومن أجل هذا الهدف يجب امتلاك التجربة الضرورية، والتفكير في ذلك بشكل

مسبق، بكيفية تعرف كيف تتلطف ذلك في الوقت الملائم".

بعد نجاح ثورة أكتوبر المجيدة، فتح هذا الانتصار للثورة البلشفية لكروبسكايا حقلا واسعا في ميدان التربية، فقد أدارت وبكل اقتدار أنشطة تنظيمية وتربوية سياسية هامة، فقد أصبحت وزيرة للتربية والتعليم – ومن غيرها يستطيع اخذ هذه المهمة على عاتقه وهي المهووسة منذ شبابها الأول بحب هذا الميدان وأبدعت فيه إبداعا – وخلال سنوات عديدة قادت ضبطا علميا وبيداغوجيا لنظام تربوي جديد.

إن أعمال كروبسكايا في ميدان التربية والتعليم لا يمكن حصرها أو تعدادها، ويمكن الوقوف عند أكثرها أهمية وهو مجال محاربة الأمية، فقد كان هذا ميدانها بكل امتياز ونذرت حياتها له منذ ريعان شبابها واعتبرته ذا أولوية بالغة، فقد اعتبرت كروبسكايا أن مهمة محاربة الأمية المتفشية في صفوف الشعب الروسي تعد المهمة التي تعلق ولا يعلى عليها في التربية الاشتراكية، فهي ترى ألا تطور اقتصادي واجتماعي بدون القضاء على الأمية، حتى أنه في سنة 1923 تأسست جمعية تطوعية كان شعارها "فلتسقط الأمية".

لقد قلبت كروبسكايا مفهوم التعليم، وغيّرت التربية والتعليم شكلا ومضمونا، "إنها التربية الشيوعية والتي ليست هي العائلة فقط" وهي تتبادل الحديث مع مكسيم غوركي:

"بناء الاشتراكية لا يعني فقط إقامة البنايات العملاقة ومعامل الحبوب، التي

هي شرط أساسي، ولكنها غير كافية، فالإنسان ما زال مطالبا بتطوير قلبه وعقله"

(المجلد الحادي عشر، صفحة 151).

إن شهرة كروبسكايا كمنظرة ومؤرخة للعلوم البيداغوجية وكمنظمة بارزة للنظام التربوي الاشتراكي طبقت الآفاق، فقد امتدت هذه الشهرة إلى عدد من دول العالم، وتكريما للخدمات التي قدمتها لقضية التربية، تمنح اليونسكو كل سنة جائزة دولية وشهادة تنويه باسم كروبسكايا إلى البلدان والمؤسسات والتنظيمات، أو الأشخاص الذي تميزوا في مساهمة تستحق التقدير في محاربة الأمية.

أما العمال السوفييات فقد ظلوا يجلون اسم كروبسكايا ويحيون فيها عاليا سمو ابنة الشعب الروسي، التي نذرت حياتها كلها للنضال، منذ أن وعت واقع هذا الشعب والاستغلال والاضطهاد الذي يعيشه تحت نير النظام القيصري المستبد، من أجل انتشار الاشتراكية، ومن أجل تفتح الثقافة الاشتراكية، فكثير من الشوارع والمدارس والمؤسسات العلمية والثقافية تحمل اسمها، وفي ذلك تتجسد ثقافة الاعتراف بإحدى أعظم النساء الروسيات وأروعهن في تاريخ روسيا القديم والحديث والمعاصر، وإن تاريخ روسيا التعليمي والتربوي والبيداغوجي ليظل يقرأ لها صفحات مجيدة في هذا الشأن، وإن بصمتها لا يزال أثرها حاضرا إلى اليوم في روسيا.



ولأن ميدان التربية والتعليم كان أحد أكبر ما تفوقت فيه كروبسكايا فبعد وفاة لينين نذرت حياتها إلى غاية وفاتها إلى قضايا التربية بالأساس.

إن كل هذا، وما لا تسعف مئات الصفحات على حصره، وما لا يقدر القلم على تدبيجه، هو ما كانت تلك المرأة الرائعة كروبسكايا، هذه المعلمة البلشفية العظيمة التي كان وقتها لا يحسب ويعد بالأيام والشهور والأعوام، بل بالساعات والدقائق والثواني، فالوقت ثمين ولا يجب العبث به، لأن أي تأخير في إنجاز المهمة، مهمة إخراج الشعب الروسي من ظلمات القرون الوسطى بالنسبة لها، أمر لا يغتفر، لذلك فهي تستعجل دخوله التاريخ من بابه الواسع، وليس أي باب، بل إنه باب الثورة الاشتراكية، وإن أي تخلف عن هذا الموعد فهو إخلاف بالموعد مع التاريخ.

إن كروبسكيا هي تلك المرأة التي لم تخذل أبدا رفيقها لينين، المرأة التي لا تتبدل، فحتى في أكثر اللحظات العصبية التي كانت تواجه فيها الصعوبات والمخاطر، وفي الوقت الذي استسلم الرفاق، حتى الأقوياء منهم في لحظات ضعف للشك، وفقدوا إيمانهم، ظلت قناعة كروبسكيا ثابتة، رابطة الجأش لا تتزحج عن مواقفها، مقتنعة أن القضية عادلة وصائبة وأن النصر قادم لا محالة. في كروبسكيا كل صفات المرأة البلشفية، تواضعا وبساطة وحزما وإصرارا وصبرا وجلدا، بذلا وعطاء...، إنها الأخلاق الرفيعة والمبادئ الثابتة التي لا تتوفر إلا في النساء الثوريات.

إن إسهامات كروبسكيا الثورية المحترفة، والنساء البروليتاريات عموما، يبين بشكل لا جدال فيه، أنه بدون مشاركة النساء ما كان لثورة أكتوبر أن تنتصر، وإذا صح القول أنه بدون ثورة لن تتحرر النساء، فيصح القول أيضا أنه بدون النساء لن تكون ثورة.

بعد هذا المسار الطويل والحافل بالأعمال الجليلة سيتوقف قلب هذه البلشفية العظيمة عن الخفقان، وسيكف دماغها عن التفكير إلى الأبد، في ذات يوم من سنة 1939 وهو يوم 27 فبراير. وهناك في مكان من الساحة الحمراء وعلى أبواب الكرملين وقرب لينين رفيقها في النضال والحياة سيستقر رماذ هذه البلشفية الرائعة.

ملحوظة: نشرت أعمال كروبسكيا في 11 مجلدا تحت عنوان "مؤلفات بيداغوجية"، وهي باللغة الفرنسية.